وهناك كتب أخرى للمؤلف مفقودة ، وهى :

١- فنون المعارف وما جرى فى الدهور السوالف . ٢- ذخائر العلوم وما كان فى سالف الدهور . ٣- نظم الجواهر فى تدبير الممالك والعساكر . ٤- الاستذكار لما جرى فى سالف الأعصار . ٥- نظم الأعلام فى أصول الأحكام . ٦- نظم الأدلة فى أصول الملة . ٧- المسائل والعلل فى المذاهب والملل . ٨- خزائن الدين وسر العالمين . ٩- المقالات فى أصول الديانات . ١٠- سر الحياة . ١١- وصل المجالس . ١٢- الأخبار المسعوديات . ١٣- رسالة البيان فى أسماء الأئمة . ١٤- الإبانة فى أصول الديانة . ١٥- تقلُّب الدول وتغيير الآراء والملل . ١٦- الصفوة فى الإمامة . ١٧- مقاتل فرسان العجم . ١٨- الاستبصار فى الإمامة . ١٩- المبادئ والتراكيب . ٢٠- الرؤوس السبعة . ٢١- الزاهى . ٢٢- الدعاوى . ٢٣- الاسترجاع . ٢٤- مزاهر الأخبار وظرائف الآثار . ٢٥- الرؤيا والكمال . ٢٦- طب النفوس . ٢٧- حدائق الأذهان فى أخبار الرسول . ٢٨- الزلف . ٢٩- القضايا والتجارب . ٣٠- الواجب فى الفروض اللوازم . ٣١- الانتصار المفرد لفرق الخوارج[١] .

# ثانياً : مفهوم الحضارة

## ١- مصطلح الحضارة :

عندما نطرح سؤال : ما مفهوم الحضارة ؟ سوف نجد تعدداً وتبايناً فى الإجابات ، ولمَّا كانت الحضارة خاصة بالإنسان وملازمة له ، ولأن الإنسان يتغير ويتطور بحسب الحقب الزمانية والمراحل التاريخية التى يمر بها بحيث لا يمكن القول بأن الإنسان هو هو فى كل العصور ، لذا فإن الإجابة عن سؤال : ما مفهوم الحضارة ؟ تختلف باختلاف الزمان والمكان الذى يُطرح فيه هذا السؤال .

وإذا أردنا أن نخلص إلى إجابة مقنعة ومواكبة للعصر الحالى فإنه يلزمنا أن نعرف معنى الحضارة فى اللغة أولا ، ثم نعرف مفهومها فى الاصطلاح بعد ذلك .

(١) المسعودى ، الخربوطلى ، ص ٤٢ ، ٤٣ ، أيضا تاريخ التراث العربى ، المجلد الأول ، الفصل الرابع ، ص ٥٣٤

## أ) لفظ «حضارة» فى اللغة العربية :

الحَضَر : خلال البدو ، والحاضر : خلاف البادى ، وفى الحديث : لا يبع حاضر لباد والحاضر: المقيم فى المدن والقرى ، والبادى : المقيم فى البادية ، ويقال : فلان من أهل الحاضرة وفلان من أهل البادية ، وفلان حَضَرى وفلان بدوى .

والحِضارة : الإقامة فى الحَضَر (عن أبى زيد). وكان الأصمعى يقول : الحَضارة بالفتح ، قال القطامى : فمن تكن الحَضَارة أعجبته فأى رجال بادية ترانا ؟

ورجل حضير : لا يصلح للسفر . وهم حَضور أى حاضرون ، وهو فى الأصل مصدر .

والحَضَر والحَضْرة والحاضرة : خلاف البادية ، وهى المدن والقرى والريف ، سميت بذلك لأن أهلها حضروا الأمصار ومساكن الديار التى يكون لهم بها قرار[1] .

## ب) لفظ حضارة «فى اللغات الأجنبية» :

من المعلوم أن لفظ «حضارة» فى الفرنسية هو Civilistion وفى الإنجليزية Civilization ، فهى مشتقة من الأصل اللاتينى Civis وهى تعنى مدنى أو ساكن المدينة ، أما المدنية فى اللاتينية Ci-vitas أى : مدينة أو حاضرة ، وهى مكان تجمع الناس وحضورهم لإقامة مصالحهم وحياتهم المشتركة وحفظها ، ثم أخذت الكلمة تتجه لتعنى صفات الأدب والعلم وحسن العِشرة وغيرها من الصفات المحمودة التى يكتسبها الإنسان المتمدن[2] .

## جـ) لفظ «حضارة» فى الاصطلاح :

ذهب الناس فى أسباب ظهور الحضارة وكيفية انتشارها إلى ثلاثة مذاهب : فأهل المذهب الأول يقولون : إن الإنسان خُلِق لا يمتاز عن الحيوان إلا بنور عقله ، فهو الذى أرشده وهداه إلى الاستعمار والحضارة ، وأهل المذهب الثانى ينسبونها إلى التعاليم الإلهية التى أنزلها الله فى كتبه السماوية ، وأهل المذهب الثالث - وهو المعوَّل عليه الآن - يذهبون إلى أنها نشأت عن خصب الأرض وصلاحها لحياة الإنسان ، وعن وسائل النماء والارتقاء المتوافرة فيها[3] .

فأمَّا أصحاب المذهب الأول : فإنهم يريدون بالحضارة الخروج من الوحشية والخشونة إلى التهذيب ودماثة الخلق ، الأمر الذى دعا الفيلسوف الإنجليزى توماس هوبس إلى أن يصف الإنسان

(١) اللسان ٢/٩٠٦ ، ٩٠٧ ط دار المعارف .

(٢) معالم على طريق تحديث الفكر العربى ، د. معن زيادة ، عالم المعرفة ، الكويت ١٩٨٧ ، ص ٤٨ .

(٣) الحضارة القديمة ، د. أحمد كمال أمين ، مكتبة عيسى الحلبى ، د. ت ، ص ٥ .

البدائى بأنه : إنسان فقير ، ساذج ، متوحش ، ناقص ، خالٍ من الآداب ، أميٌّ ، لا اجتماعى .

وأصحاب هذا المذهب يجعلون الإنسان البدائى فى مقابل الإنسان المتحضِّر ، والمجتمعات البدائية فى مقابل المجتمعات المتحضرة والمتمدنة .

وهم يرون أن الحضارة : «ظاهرة إنسانية عامة . والإنسان هو المخلوق الوحيد الذى يرتقى ويعمل على تحسين أحوال نفسه بفضل ما أهداه الله من عقل يمكِّنه من التفكير واختزان المعلومات والربط بينها والإفادة منها»[1] .

ولم يكن عند أهل هذا المذهب اسم معين للحضارة فى البداية ، وظل الفلاسفة يبحثون عن أحوال معيشة الإنسان دون أن تقيدها باسم خاص ، فكانوا يعبِّرون عن الحضارة فى اصطلاحهم بالسياسة الجمهورية والقوانين والعادات ، وسمَّاها بعد ذلك الإفرنج Civilization ، ثم اجتهدوا بعد ذلك فى إيجاد اسم للعلم المختص بأحوال المدنية والقوانين والعادات الرابطة لها فوجدوا لفظًا مناسبا لذلك وهو Politique أى السياسة ، وأصله مأخوذ من الكلمة اليونانية Polis ومعناها : مدنية ، ثم توسَّع أهل هذا المذهب فصرفوه إلى معنى عام شامل للمدنية والسياسة والاقتصاد والماديات والأدبيات ، وبمعنى أدق لنظام الممالك كتدبير شئونها وتثقيف عقولها ، فالحضارة أصبحت تعنى عندهم : حالة الأمم الراقية عقولها ، اللينة طباعها ، النابغة فى الفنون والصنائع ، المنتشرة بينها العلوم والمعارف[2] .

وأما أصحاب المذهب الثانى فإنهم يرون أن الله - عز وجل - عندما خلق الإنسان علّمه كيف يعيش ، ثم أوحى إليه حقائق الدين والأدب الأساسية ، وأصبح كل شعب على درجة من المدنية والنجاح يختلف باختلاف ما اكتسبه من الاعتقادات الدينية والنظامات المدنية والسياسية والأخلاق والصناعة وانتشار الأدب والعلوم ، وما أحرزه من مظاهر الحياة الاجتماعية ، ويرى أصحاب هذا المذهب أن الدين هو أحسن واسطة لتهذيب الشعوب وأن الحضارة لا تنبعث إلا بالعقيدة الدينية ، وينبغى أن نبحث فى أى حضارة من الحضارات عن أصلها الدينى الذى بعثها ، فالحضارة لا تظهر فى أمة من الأمم إلا فى صورة وحى يهبط من السماء يكون للناس شرعاً ومنهاجاً ، أو هى على الأقل تقوم أسسها فى توجيه الناس نحو معبود غيبى بالمعنى العام ، فكأنما قُدِّر للإنسان ألا تشرق عليه شمس الحضارة إلا حين يمتد نظره إلى ما وراء حياته الأرضية . .»[3] .

(١) الحضارة ، د. حسين مؤنس ، عالم المعرفة ، الكويت ١٩٧٨م ، ص ٤٩ .

(٢) الحضارة القديمة ، ص ٥ ، ٦ .

(٣) شروط النهضة ، مالك بن نبى ، ترجمة عبد الصبور شاهين وعمر كامل مسقاوى ، دار العروبة ، القاهرة ، ط٢ ، ١٩٦١م ، ص ٦٧ ، ٦٨ .

وأمَّا أصحاب المذهب الثالث فإنهم يرون أن العمران البشرى مصطلح مرادف للحضارة ، وأول من استخدم هذا المصطلح ابن خلدون ، فإنه يرى أن الحضارة هى : «أحوال عادية زائدة على الضرورى من أحوال العمران زيادة تتفاوت بتفاوت الرفه وتفاوت الأمم فى القلة والكثرة تفاوتاً غير متحصر ، وتقع فيها عند كثرة التفنن فى أنواعها وأصنافها فتكون بمنزلة الصنائع ، ويحتاج كل صنف منها إلى القومة عليه والمهرة فيه ، وبقدر ما يتزايد من أصنافها تتزايد أهل صناعتها ، ويتلوَّن ذلك الجيل بها ، ومتى اتصلت الأيام وتعاقبت تلك الصناعات حذق أولئك الصُّنَّاع فى صناعتهم ، ومهروا فى معرفتها والإعسار بطولها وانفساح أمدها ، وتكرير أمثالها تزيدها استحكاماً ورسوخاً ، وأكثر ما يقع ذلك فى الأمصار لاستبحار العمران وكثرة الرفه فى أهلها ، وذلك كله إنما يجئ من قِبل الدولة ، لأن الدولة تجمع أموال الرعية ، وتنفقها فى بطانتها ورجالها وتتسع أحوالها بالجاه أكثر من اتساعها بالمال ، فيكون دخل تلك الأموال من الرعايا وخرجها فى أهل الدولة ثم من تعلَّق بها من أهل المصر، وهم الأكثر ، فتعظم لذلك ثروتهم ، ويكثر غناهم ، وتزيد عوائد الترف ومذاهبه ، وتستحكم لديهم الصنائع فى سائر فنونها وهذه هى الحضارة»[1] .

ويرى ابن خلدون أن العمر الطبيعى للدولة مائة وعشرون سنة على اعتبار أن تاريخها يمر فى ثلاثة أجيال ، لكل جيل أربعون سنة ، وهذه الأجيال هى :

الجيل الأول : هو جيل البداوة والخشونة والتوحش والقوة .

والجيل الثانى : دور الانتقال من البداوة إلى الحضارة ، وفيه يزول جانب من قوة الجيل العفىّ المنشىء ويفقد أهل الدولة الكثير من صفات القوة الأولى .

والجيل الثالث : وفيه ينسى أهل الدولة عهد البداوة ويفقدون القوة والحمية بتمكُّن الترف منهم ، ويحتاجون إلى من يدفع عنهم ، وهنا يتأذَّن عمر الدولة بالفناء[2] .

ومعنى ذلك أن التطور الحضارى يبدأ عند ابن خلدون من عند أهل البداوة ، ويتطور هؤلاء حتى يصيروا أهل حضر ، ويحمل ابن خلدون على الحضارة ويرى أنها تُضعِف من يملك أسبابها ويطمئن فى مهادها ويستسلم لنعيمها فيضعف فيه النزوع إلى القوة ويقل حماسه للجهاد والصراع ، وتفسد الحضارة طبعه ويستولى عليه الترف فيفسد ويضمحل .

وبالرغم من أن ابن خلدون سبق الكثيرين من علماء الاجتماع فى هذا العصر فيما انتهوا إليه من آراء سديدة فإنه يخطئ هنا خطأ أساسياً ، فإن التحضُّر والتدرُّج فى مراتب الحضارة لا يضعف

(١) المقدمة ، ت وافى ، ط البيان العربى ، ٣/ ٨٧١ ، ٨٧٢ .

(٢) المقدمة ، ت وافى ، ٢/ ٤٨٦ ، ٤٨٧ .

الإنسان أو الجماعة بل يقويها وتقويه ، فإن الحضارة علم ومعارف وخبرة وتجربة ، وكل هذه تزيد ملكات الإنسان إرهافاً ، وتفجّر فى كيانه ينابيع جديدة من القوة ، ولكن الذى يضعف البشر سوء استخدامهم لنعم الحضارة[١] .

وعندما طُرِح السؤال : ماهى الحضارة ؟ فى النصف الثانى من القرن التاسع عشر كانت أشهر الإجابات وأكثرها تكاملاً هى إجابة إدوار تايلور فى كتابه «الثقافة البدائية» وقد جاء فيه أن الحضارة هى: «ذلك الكل المركب الذى يشتمل على المعرفة والمعتقد والفن والأدب والأخلاق والقانون ، والعرف والعادات الأخرى التى يكتسبها الإنسان بوصفه عضوا فى المجتمع»[٢] .

وقد ظل هذا التعريف أكثر من نصف قرن إلا أنَّ تطور العلوم والحركة العلمية ألقيا الضوء على فهم أوقع للحضارة ، ودفعا إلى تعاريف جديدة ، وأُخذ على تعريف تايلور عموميته وطابعه الوصفى وإهماله للعلاقة بين الحضارة والمجتمع البشرى . ويَعتبر توينبى الحضارة جزءا من التاريخ ومحوراً للدراسات التاريخية ، ويمكننا الوصول إلى تحديد الموقع الحقيقى للحضارة وفلسفتها بين كل من التاريخ والفلسفة على أساس أن فلسفة الحضارة علم يقع بين كل من التاريخ والفلسفة ، ومن خلال علم التاريخ ندرس تاريخ الحضارة .

ويرى ول . ديورانت أن الحضارة هى نظام اجتماعى يعين الإنسان على الزيادة من إنتاجه الثقافى ، وإنما تتألف الحضارة من عناصر أربعة : الموارد الاقتصادية ، والنظم السياسية ، والتقاليد الخلقية ومتابعة العلوم والفنون ، وهى تبدأ حين ينتهى الاضطراب والقلق[٣] .

ويعرِّف ألبرت اشفيتسر الحضارة بقوله : إن الحضارة هى التقدم الروحى والمادى للأفراد والجماهير على السواء ، وأول مقوماتها أنها تقلِّل الأعباء المفروضة على الأفراد والجماهير والناشئة عن الكفاح فى الوجود . وإيجاد الظروف المواتية للجميع فى الحياة قدر الإمكان مطلب يُطلب لنفسه من ناحية ، ومن ناحية أخرى يُطلب من أجل كمال الأفراد روحياً وأخلاقيا وهو الغاية القصوى من الحضارة[٤] .

---

(١) الحضارة ، د. حسين مؤنس ، ص ١٥٤ .

(٢) تايلور ، د. أحمد أبو زيد ، مجموعة نوابغ الفكر الغربى ، دار المعارف ، ١٩٥٨ ، ص ١٩٥ .

(٣) قصة الحضارة ، ول . ديورانت ، ت زكى نجيب محمود ، لجنة التأليف والترجمة والنشر ١٩٤٩م ، ١/ ٤ .

(٤) فلسفة الحضارة ، ألبرت اشفيتسر ، ت عبد الرحمن بدوى ، المؤسسة المصرية العامة للتأليف والترجمة والطباعة والنشر ، القاهرة ، د. ت ، ص ٣٤ ، ٣٥ .

ويعتبر اشبنغلر المدنية هى الطور الحرج من أطوار الحضارة ، فلكل حضارة مدنيتها الخاصة ، والمدنية هى المصير المحتوم للحضارة ، ويعزو اشبنجلر جوهر الحضارة إلى الجانب الروحى ، وأن العقلانية فى شتى مذاهبها هى فلسفة مدنية لاحضارة ، لذلك عندما تدخل الحضارة الطور العقلانى من تطورها تبلغ خريف عمرها وتشيخ وتهوى إلى درك المدنية ، ثم تتابع انحدارها إلى الانحلال[١]

ويمكن أن نقارن بين رأى اشبنغلر السابق فى الحضارة ورأى ابن خلدون فى أنَّ : المُلْك والدولة غاية للعصبية ، وأنَّ الحضارة غاية للبداوة وأنَّ العمران كله من بداوة وحضارة ومُلْك وسوقة له عمر محسوس ، كما أن للشخص الواحد من أشخاص المكونات عمرا محسوسا ، وأنه إذا بلغ سن الأربعين وقفت الطبيعة عن أثر النشوء والنمو برهة ، ثم تأخذ فى الانحطاط بعد ذلك ، فلتعلم أنَّ الحضارة فى العمران أيضاً كذلك لأنه غاية لا مزيد وراءها»[٢] .

كما نستطيع أن نردد قول توينبى بأن : «تاريخ الحضارة يبدأ مع الإنسان منذ اعتماده على الزراعة فى معاشه وإقامته المساكن وابتكاره أدوات الصيد والدفاع عن النفس والتحكم فى بيئته واستغلالها ، ويتبع ذلك ابتكار الكتابة ثم ظهور أولى التنظيمات السياسية لإدارة الحكم وما يسمى بنشوء وتكوّن الدولة»[٣].

من خلال التعريفات السابقة والمنظورات المتعددة لمعنى الحضارة يتضح لدينا الخلط الذى مؤداه التباين الفكرى والتاريخى لذلك المعنى ، مما يكون له انعكاساته المتعددة عند تناولنا لمعنى اللفظ إلى طرحه كإشكالية فكرية خاصة ببنية كل حضارة كوحدة قائمة بذاتها .

وهذا القول هو ما كان توينبى يرمى إليه حين قال :

إن كل حضارة تمتاز عن الأخرى بأنها كيانات كلية يتعلق كل جزء فيها - بشكل من الأشكال - بالأجزاء الأخرى ، ولذلك فإن من المعضل فى دراسة أية حضارة هو معضل إيجاد نقطة الدخول فى دراسة دائرة»[٤] .

ولقد ذهب علماء الأنثروبولوجى إلى أن لكل حضارة مجموعة من القيم تختلف بها عن الحضارة الأخرى ، لذلك ذهبوا إلى صعوبة قيام مقارنة بين الحضارات لأنها متنافرة أشد التنافر فى

(١) تدهور الحضارة الغربية ، أسوالد اشبنغلر ، ترجمة أحمد الشيبانى ، منشورات دار مكتبة الحياة ، بيروت ، ١٩٦٤م ، ١/ ٨٧ وما بعدها .

(٢) المقدمة ، ابن خلدون ، ت وافى ، ط البيان العربى ، ٣/ ٨٧٦ .

(٣) مع أرنولد توينبى ، محمد عبد الله الشفقى ، الدار القومية ، القاهرة ، ١٩٦٤ ، ص ٥٢ ، ٥٣ .

(٤) منهاج توينبى التاريخى ، د. فؤاد شبل ، الهيئة العامة للكتاب ، القاهرة ، ط ١٩٧٥ ، ص ٤٤ .

أوجهها على هذا كيانات غير قابلة للمقارنة ويغلب على كل حضارة لون خاص يميزها عن غيرها ، وأن الحضارات باختلافها وجزئياتها يمكن أن يُنظر إليها من عدة اتجاهات ، كل اتجاه يمثل ركناً من أركانها .

نخلص مما سبق إلى أن الحضارة - فى مفهومها العام - هى ثمرة كل جهد يقوم به الإنسان لتحسين ظروف حياته ، سواء أكان المجهود المبذول للوصول إلى تلك الثمرة مقصوداً أم غير مقصود، وسواء أكانت الثمرة مادية أم معنوية[1] . مع الوضع فى الاعتبار ما تتميز به كل حضارة عن الأخرى، وخاصة ما قطعته كل أمة من شوط فى سبيل تحقيق حضارتها . فالحضارة إذن لها شقان : مادى ومعنوى ، وهى رقى فى كل مجالات الحياة رقياً يُنشئ حياة مستقرة متقدمة فى شتى مناحيها .

## ٢- مفهوم الثقافة :

إن تاريخ الإنسان البيولوجى قصة تلاقٍ وتواصل وتجمع ، كذلك تاريخه الثقافى . والإنسان محكوم عليه بالتجمع والتواصل لأنهما فى أصل وجوده وفى طبائع تكوينه ، ثم هما بعد ذلك متكاملان عضوياً ووظيفياً فلا يمكن تصور أحدهما بدون الآخر فلا تجمُّع اجتماعياً دون تواصل ولا تواصل اجتماعياً دون تجمع ، وكما يستحيل تصور اليد حية منفصلة عن الجسم كذلك يستحيل تصور الإنسان منفصلاً عن المجتمع ، فالإنسان بطبيعته حيوان سياسى ، أى مدنى ، أى أنه لا يمكن فصل الإنسان عن الحياة الاجتماعية ، ولا يتهيأ فهمه معزولاً عنها[2] .

ويرى رالف لنتون Relphlinton أن الثقافة ابتدأت منذ أن بدأ الإنسان يستعمل اللغة ، فهى أداة الاتصال ، وأهم أدوارها بناء الإرث البشرى الاجتماعى الذى هو عبارة عن الأفكار والعادات والوسائل الفنية المميزة لكل مجتمع والتى تتناول عبر الأجيال[3] .

وقد اختلف علماء الاجتماع فى وضع تعريف محدد للثقافة إلا أنهم اتفقوا على وجود بعض العناصر المكّونة للثقافة كالدين والفن والقانون فى معظم الثقافات ، وحيث إن الثقافات وجدت منذ العصر الحجرى فهى موجودة فى كل المجتمعات باختلاف درجة تحضُّرها .

فالثقافة كالسلوك ظاهرة سيكولوجية يمكن ملاحظتها .

والسلوك الثقافى يحتوى على كل الألفاظ الفكرية والعمومية التى يتعلَّمها الإنسان وتنتقل من جيل إلى جيل خلال عملية التعلُّم .

---

(١) الحضارة . د. حسين مؤنس ، ص ١٣ .

(٢) تمهيد فى علم الاجتماع ، د. عبد الكريم اليافى، مطبعة الجامعة السورية ، دمشق ١٩٥٧ م، المقدمة ، ص ٣٠ .

(٣) دراسة الإنسان ، رالف لنتون ، ترجمة عبد الملك الناشف ، المكتبة العصرية ، بيروت ١٩٦٤ م ، ص ٩٩ .